

وقفة عند اسباب انتقال الخلافة الاسلامية من المدينة المنورة الى الكوفة و نتائجه

على بيات^١

تاريخ الوصول: ١٤٢٧/١٢/٢

تاريخ القبول: ١٤٢٨/٢/١٦

يعتبر انتقال مركز الخلافة الاسلامية من المدينة المنورة الى الكوفة من الاحداث الهامة والمصيرية في تاريخ الاسلام والتشيع لاهل البيت (ع) حيث تم انتقال مركز العالم الاسلامي السياسي بشكل دائم من المدينة المنورة عاصمة الحجاز الى الكوفة ومن ثم الى دمشق وبعدها الى بغداد، وان هذا الانتقال الذي حصل لاسباب جغرافية، استراتيجية، سياسية، اجتماعية، اضافة الى ان الكوفة قد تحولت الى مركز التشيع وانتشاره في العالم الاسلامي خاصة في ايران، وفي هذا البحث سوف نناقش اسباب هذا الانتقال ونتائجه.

الكلمات الرئيسية: المدينة مركز الخلافة، الكوفة مركز الخلافة، أسباب انتقال مركز الخلافة، نتائج الانتقال، الكوفة منطلقاً لإزدهار التشيع.

١. عضو الهيئة العلمية في جامعة طهران

المقدمة

ان فى اختيار المدن سيما الكبيرة منها مراكزاً او عواصماً لها اسبابٌ وعللٌ مختلفة فى خلفياتها التاريخية ومواقعها الجغرافية والاستراتيجية اضافة الى مواردها الطبيعية، بالاضافة الى اسباب مختلفة أخرى من دينية واجتماعية وثقافية واقتصادية، وكثيراً ما نجد التحولات السياسية وانتقال الامكانيات والقدرات تفسح المجال لانتقال مركز الدولة من مدينة الى أخرى.

لهذه الاسباب الانفة الذكر ولغيرها طوال تاريخ العالم الاسلامى عندما كان واحداً وموحداً وما اعقبته من مراحل حيث تمت تجزئته فيها من الناحية السياسية أُختيرت مدن كثيرة لتكون عواصم متعاقبة للعالم الاسلامي كالكوفة ودمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة ونيسابور وشيراز وخوارزم ومرأغة واسطنبول واصفهان وغيرها.

ونحن نناقش فى هذا البحث انتقال مركز الخلافة الاسلامية من المدينة المنورة الى الكوفة والنتائج التي تعتبر من الحوادث المهمة والمصيرية فى التاريخ الاسلامي وتعتبر مهمة ايضاً باعتبار ان المدينة المنورة والحجاز فقدتا مركزيتهما السياسية لاسباب لا بد من ذكرها ومصيرية، لان هناك علاقة متينة بين الانتقال بين المد التاريخي للتشيع وانتشاره، هذا البحث يوضح لنا بعض المبهات ويحيينا على بعض الاسئلة التى تُطرح حول تأريخ الاسلام والتشيع لاهل البيت عليهم السلام.

الأسس الرئيسية في معرفة اسباب الانتقال

هناك ثلاثة أسس رئيسية او مرتكزات ينبغي التعرض لها وايضاها لمعرفة اسباب انتقال مركز الخلافة الاسلامية من المدينة المنورة الى الكوفة وخلفياته وهي كمايلي:

الاساس الاول: الموقع الطبيعي للمدينة المنورة ومكانتها العريقة ومركزيتها المهمة، وقد مرّت بثلاث مراحل اساسية ومهمة هي:

المرحلة الاولى: وتكون خلفيتها التاريخية منذ نشأتها وبدايتها الى الهجرة النبوية المباركة للرسول الاعظم محمد (ص).

المرحلة الثانية: وتكون من الهجرة العطرة الى وفاة النبى (ص) ولحوقه بالرفيق الاعلى.

المرحلة الثالثة: وتكون من وفاة النبى (ص) الى انتقال مركز الخلافة الاسلامية الى الكوفة سنة ٣٦ للهجرة المباركة.

الاساس الثاني: الفتوحات والتطورات السياسية والاجتماعية الأخرى بعد وفاة الرسول (ص) ودورها فى القضاء على النظام السائد انذاك.

الاساس الثالث: دراسة الظروف والاحوال الاستراتيجية فى العراق، خاصة فى مدينة الكوفة الحديثة النشأة والتأسيس.

كما ان هناك ثمة نتائج فكرية وثقافية واجتماعية وسياسية عميقة شاملة لهذا الانتقال فى التأريخ الاسلامي، وايضاً فى مسار ظهور التيار الشيعي حيث نقوم بدراستها فى موضع آخر من هذا البحث.

الاساس الاول: الموقع الطبيعي للمدينة المنورة ومركزيتها

المرحلة الاولى: تقع المدينة المنورة التى كانت تسمى يثرب قبل الهجرة فى منطقة الحجاز على الطريق التجارى بين اليمن والشام وهي منطقة خصبة، وافرة المياه، مما يساعد ذلك على كثرة الزراعة، وخاصة زراعة النخيل والى يومنا هذا وكما جاء فى بعض الروايات ان بعض اليهود هربوا من فلسطين الى المدينة (يثرب) وسكنوا فيها فى القرن الاول للميلاد حيث كانت فلسطين تحت سلطة الروم ومن هؤلاء افراد من قبائل بني النضير وبني قريظة وبني قينقاع حيث عملوا بالزراعة فيها، كما ان القبليتين اليمينيتين الاوس والخزرج رحلتا من الى الشمال حيث يثرب وسكننا بالقرب من القبائل اليهودية بعد دمار سد مأرب^١.

البيوت بحيث تحولت الى مدينة، وشكل سكان هذه المدينة، الانصار والمهاجرين الذين هاجروا طوعاً اليها ليكونوا قرييين من النبي(ص) ومن المسجد، كبنى سلمة الذين شجعهم النبي(ص) على الهجرة^٤.

والواقع ان مع هجرة النبي(ص) فقد انتقل محور الحركة الاسلامية والتيار الاسلامي الى المدينة والذي كان قد بدأ من مكة قبل ثلاث عشرة سنة حيث لم يستقر انذاك بعد.

ويعتبر بناء المجتمع وتأسيس الحكومة الاسلامية التي بنيت على القيم والمثل الاسلامية خطوة رئيسية في توسع الاسلام وانتشاره تاريخياً الذي اسس ونشأ وترعرع في هذه المدينة وفتح مضماراً حديثاً ليس في تأريخ هذه المدينة و الحجاز والجزيرة العربية فحسب، بل في قسم عظيم من العالم، الذي عرفته تلك الحقبة الزمنية.

لقد وضع النبي(ص) اسس الدولة الاسلامية واصولها في المدينة المنورة وذلك ببناء المسجد النبوي، والتآخي بين المهاجرين والانصار وعقد الاتفاقيات السياسية والاقتصادية والاجتماعية واثبت بنود الاحلاف. ومن ناحية السياسة الخارجية، فقد اعلن النبي(ص) ان المدينة عاصمة ومركزاً لدولة مقتدره في الجزيرة العربية، بعد ان اثبت مكانتها الرفيعة عسكرياً طوال مدة الغزوات والمعارك المختلفة، كما انه عقد اتفاقية السلام في الحديبية، واتفاقيات أخرى مع نصارى نجران، كما انه ارسل الرسائل الى ملوك وامراء العرب وسائر الدول يومها، كما انه قام باجراءات سياسية وعسكرية كفتح خيبر ومكة.

وفي الحقيقة انه منذ السنة التاسعة للهجرة وحتى وفاة النبي(ص) كادت الجزيرة العربية ان تكون منقاداً ومطبعة للنبي(ص)، حيث اشتهرت المدينة المنورة بصفتها مركزاً للإسلام وعاصمته في الجزيرة العربية.

المرحلة الثالثة: والحديث عن هذه المرحلة حول المدينة منذ وفاة النبي(ص) وحتى انتقال الخلافة الى الكوفة سنة ٣٦ للهجرة المباركة:

وقد احتلت يثرب مكانة مهمة في منطقة الحجاز قبل الاسلام من الناحية الجغرافية كونها واقعة على طريق قريش المهم التجارى السالك الى الشام، وامتلاكها الاراضى الزراعية الصالحة والخصبة على الرغم من شهرتها واعتبارها الذي ارتبط بدورها الحساس في تأريخ الاسلام، كونها اصبحت عاصمة الرسول الاعظم(ص) وكأول عاصمة واهمها في تأريخ المسلمين.

المرحلة الثانية: المدينة المنورة من الهجرة المباركة الى وفاة النبي (ص).

ان الارهاصات والمقدمات التي أدت الى شهرة المدينة المنورة قد حصلت منذ السنة العاشرة و الى السنة الثالثة عشرة من البعثة النبوية، وذلك ان بعضاً من ابناء قبيلة الخزرج وكذلك الاوس وبسبب ضعفهم الناتج من الحروب المستمرة ذلك الحين، فقد زاروا رسول الله(ص) في مكة، واستجابوا لدعوته، وعزموا على ان ينهوا خلافاتهم وصراعاتهم باعتناقهم الاسلام الحنيف. ان هجرة الرسول(ص) ودخوله الى يثرب فى الثانى عشر من ربيع الاول من العام الثالث عشر من البعثة النبوية المباركة حيث سميت بعد ذلك بالمدينة المنورة، وحينما تطلق كلمة (المدينة) لوحدها ويُفهم منها بانها المدينة المنورة. فالرسول الاعظم (ص) لم يترك الاثار الحقيقية على مصيرها السياسى فحسب بل أدى الى تكاملها في بناء اسس المدينة العمرانية. كانت يثرب قبل هجرة النبي(ص) مدينة متناثرة البيوتات ومنفصلة الاحياء وموزعة على البسيطة ومفتقرة الى المظاهر المدنية والحضارية العمرانية. الا انها بعد دخولها النبي(ص) واستقراره فيها خاصة تلك الديار والتي كانت تسمى (مربد)^٢.

فقد برزت (يثرب) بامتلاكها المركزية، وبُنيت فيها بيوت الانصار والمهاجرين حول هذا المركز، ونشأت المدينة انطلاقاً من هذا المركز، ونالت عنوانها الحقيقي فيما بعد. ويؤكد اليعقوبي^٣ على ذلك فيقول: جعل النبي(ص) اهل المدينة الذين كانوا قبلها مزقين مختلفين يجتمعون حوله، فاتصلت

فقد استطاعت المدينة ان تحتفظ باعتبارها وأهميتها ومركزيتها السياسية والعسكرية والاقتصادية والادارية الى ما بعد وفاة النبي(ص) وحتى عهد الخلفاء الراشدين الثلاثة ابى بكر، وعمر، وعثمان، مع العلم ان اهمية المدينة الثقافية استمرت لقرون بعدها، فاننا لانستطيع ان نبحت هذا الاعتبار وتلك الاهمية في المصادر التاريخية المرتبطة بصدر الاسلام فحسب، بل نجد انه اساس التنظيم والتدوين للقسم العظيم من الكتب الجغرافية التاريخية في المدرسة البلخية التى بدأ فيها وصف البلاد بوصف المدينة، يشير المقدسي^٥ الى ذلك بالقول: لقد بدأت بالجزيرة العربية لأن فيها بيت الله ومدينة النبي(ص)، ومنها انطلق الدين الاسلامي، والخلفاء الراشدون، والاصحاب، والانصار، والمهاجرون قطنوا فيها، ورايات الاسلام قد ارتفعت فيها فاستقر الدين تمام الاستقرار.

الاساس الثاني: الفتوحات و نتائجها

وبعد وفاة النبي(ص) اهتم المسلمون بنشر الاسلام خارج الجزيرة العربية كما ان هناك اهتماماً، ما كان مشهوداً في عهد الرسول(ص) اثناء معارك مؤتة وتبوك، مما ادى هذا الاهتمام الى الاقلال من مركزية المدينة السياسية والعسكرية اكثر مما كان بشكل تدريجي. كان انتشار و توسع الفتوحات في عهد الخليفة الثاني، وخاصة فتح الحدود الشرقية للجزيرة العربية، واهتمام المسلمين بفتح ايران نقطة انطلاق للتحويل والتغيير الشامل، حيث كانت النتيجة الاهم لهذه الفتوحات بشكل عام، وانتقال المعانسي الباطنية للاسلام، والميراث النبوي من داخل الجزيرة العربية الى خارجها، تزامناً مع هذا الانتقال هاجر اصحاب النبي(ص) الى البلاد والمدن المفتوحة فى مناطق الشام وبلاد ما بين النهرين، وايران، كانوا يحملون لواء الاسلام من جهة، والقدرة السياسية والعسكرية للدولة الاسلامية من جهة أخرى، وببيان أدق نستطيع القول بان تيار الفتوحات

سلب الاهمية السياسية والاقتصادية والاجتماعية من الحجاز تدريجياً ونقلها الى المناطق المفتوحة، وهذا مما أدى الى انزواء الحجاز سياسياً وبعد هذا الانعزال السياسي استطاع الحجاز وفي مركزه المدينة المنورة ان يعيش حياته الثقافية فقط في بعض الفروع العلمية: كالحديث، والسيرة، والتفسير، والعلوم القرآنية، والفقه، بعيداً عن الضجيج السياسي المخيم على بلاد الشام والعراق، كما ان المدينة كانت تقليدية في مواجهة الآراء الحديثة في مجال العلم والثقافة في معظم الاحيان.

لهذا نجد ان علم الكلام الذى كان يعكس آراء المفكرين المسلمين الجدد بالقياس الى العراق، كان له مجال ضيق في المدينة وليس له التوسع و الازدهار. كما ان انعزال المدينة السياسي، ووقوفها فى وجه تضارب الافكار و الآراء السياسية وظهورها ملتزمة، وتمسكها بالسنة النبوية الشريفة والاعراف والتقاليد العربية، كل ذلك مما أدى الى سكون المدينة، وعدم التأثر، والحركة، والانتعاش، امام الكثير من الوقائع بعد وفاة النبي(ص). ابتداءً من حادثة السقيفة التى عينت المسار التاريخي للاسلام والمسلمين، مروراً بالتمرد والعصيان لعثمان بن عفان، والذى كان للكوفيين والمصريين دور اكبر من غيرهم في ذلك وفي النهاية نهضة (حرة) حيث كانت الحدث والواقعة الهامة والاحيرة في المدينة في القرن الاول من الهجرة، ومن المؤكد انها من أهم العوامل في ظهور هذا الجمود السياسي والفكري، خاصة بعد خروج الكثير من رجال السياسة والفكر، واصحاب وجهات النظر من هذه المدينة، والذين كانوا على الاغلب من الصحابة، حيث تم ذلك وبسبب الضرورة بعد الفتوحات الاسلاميّة التى وفرت لهم اماكن جديدة في المناطق التى دخلوا اليها، ومن بقى منهم كان من الذين تركوا السياسة او كانوا من غير الكفوئين والمتفاعلين مع الاحداث.

الاساس الثالث: اوضاع العراق و مدينة الكوفة الحديثة التأسيس

كانت الكوفة من مدن العراق الرئيسية، و التي نشأت بفضل الفتوحات، فبعد تأسيسها بقليل حظيت باهتمام كبير واستقطبت الكثير من الصحابة، ورجال السياسة في المجتمع الاسلامي الحجازي.

وعندما انتهى موضوع استقرار العرب المسلمين في العراق، واجبار قوات الامبراطورية الساسانية على الانسحاب الى ايران، وجدت الضرورة لاجاد دار للهجرة قرب البلاد المفتوحة لتكون مركزاً للمهاجرين الوافدين، وموقعاً عسكرياً لمواجهة العدو.

ويرجع تأسيس مدينة الكوفة الى عام ١٧ للهجرة المباركة، وأول ساكنيها كانوا من المقاتلين الذين شاركوا في فتوحات ايران، لهذا كان للقبائل العربية المشاركة في فتوحات السواد و ماين النهرين والذين تحولوا الى سكان لمدينة الكوفة فيما بعد، وكان لهم دور هام في بناء البنية الاجتماعية للكوفة وايضاً في حركتها و نهضتها السياسية والدينية وفي مستقبلها.

ففي الرواية التي ذكرها البلاذري^٦ نقلاً عن الواقدي... ان السبب الرئيسي لتأسيس مدينة الكوفة وبنائها كان بأمر من الخليفة الثاني عمر بن الخطاب الى سعد بن ابي وقاص، وفي هذا الامر طلب من سعد تعيين محلاً للهجرة، لا يكون بينه وبين المدينة بحر حتى يتبع بلاد الحجاز من الناحية الجغرافية، الا ان بعض الروايات ذكرت الاسباب الاقليمية لهذا الامر كما جاء في الروايات الخمس والتي نقلها الطبري^٧ عن تأسيس الكوفة جاءت اربع روايات عن طريق سيف و الخامسة عن طريق ابي عوانه. وعلى سبيل المثال فقد امر عمر ان يُنتخب مكان يكون مناسباً للابل، فكان حيث أمر الانطباق والتنسيق والانسجام مع البيئة ذا اهتمام اكبر و اراد للعرب مكاناً مريحاً لقطعانهم، ومكاناً برياً يحتوي على الاراضي

السهلة والصحراء وريفاً زراعياً في آن واحد، كما يكون له موقعاً حدودياً يمكن من خلاله مراقبة البلاد المفتوحة^٨.

كما جاء في رواية البلاذري^٩ ان الخليفة الثاني اكد على كون المدينة الحديثة تكون داراً للهجرة و ملتقى للمسلمين (قيروان) لهذا أراد عمر أن تكون الكوفة معسكراً مدنياً كي تستطيع المجاميع و الفرق المختلفة ان تقيم فيها وان تتحشد قواتها عند الحاجة، فكان اول المهاجرين الى هذا المعسكر الذين اشتركوا في معركة القادسية و الذين يسمون بـ (أهل الايام و القادسية)، و لهذا كان لاهداف العسكرية، ولايجاد مقر للمقاتلين المسلمين والمهاجرين الذين ارادوا المشاركة في فتح ايران اثر كبير في تأسيس مدينة الكوفة و طريقة تخطيطها و مسار بنائها وبنيتها الاجتماعية، كما أن الجامع الكبير للمدينة كان في البداية محلاً لترتيب المعسكر وتجمع المقاتلين بدلاً من ان يكون مكاناً دينياً خاصاً للعبادة.

وفي بداية بناء مدينة الكوفة عُينت حدود المنطقة المركزية مرمي الرماح — بمعنى ان المنطقة التي يقع فيها المسجد وقصر دار الامارة خارج هذه المنطقة المعينة، و ان سعد بن ابي وقاص قام باقتراع الحصتين الكبيرتين، الاولى من جهة الشرق لجميع القبائل اليمنية والاخرى من جهة الغرب لجميع القبائل المضربية^{١٠} الا ان هذا التقسيم قد سبب له مشاكل في المؤسسة العسكرية. كما ان سعد قد استشار الخليفة في تقسيم الكوفة الى سبع مجاميع المسماة بـ (اسبع التجديد)، و قد تم هذا التقسيم بمساعدة النسابين العرب المعروفين امثال: سعيد بن غرمان ومشعلة بن نعيم^{١١} وهذه المجاميع أو التكتلات السبعة هي:

- ١- كنانة و حلفاؤها المسماة بأهل العالية.
- ٢- قضاة، غسان، بجيلة، خثعم، كنده، حضرموت و أزد من العرب اليمنيين.
- ٣- مذحج، حمير، همدان، وحلفاؤهم من العرب اليمنيين.
- ٤- تميم، رهاب، وهوازن من العرب المضربين.

٥- اسد، غطفان، محارب، نمر، صبيعة وتغلب من العرب
الزاريين (المضريين).

٦- اياد، عك، عبدالقيس، اهل الهجر والحمراء.

٧- قبيلة طيء.^{١٢}

بما ان عدد المجاميع اليمنية فى الكوفة كان اكثر من ذلك، فقد قام على (عليه السلام) عام ٣٩ للهجرة بزيادة التكتلات اليمنية الى اربع تكتلات او مجاميع وبخفض عدد التكتلات النزارية الى ثلاث مجاميع و في تقسيمه هذا اقام ذلك على الاصل الذى اعتمدته سعد سابقاً، اعني الروابط القبلية و هذه المجاميع او التكتلات السبعة هي:

١- همدان و حمير (بمئنون)

٢- مذحج، اشعر، طيء (بمئنون)

٣- كنده، حضرموت، قضاعة، مهرة (بمئنون)

٤- ازد بجيلة، خثعم، والانصار (بمئنون)

٥- قيس، عيس، ذويبة من النزاريين وعبدالقيس من البحرين.

٦- بكر تغلب وجميع فصائل ربيعة من النزاريين.

٧- قريش، كنانة، اسد، تميم، ضبة، رباب من النزاريين.^{١٣}

كما جاء فى المصادر ان الكوفة فى المراحل الاولى لبنائها كان عدد سكانها يتراوح بين ٢٠ الف الى ٣٠ الف شخص.^{١٤}

غير أن ياقوت اشار الى ٤٠ الف شخص.^{١٥}

و ان من بين سكان الكوفة الاوائل كان اربعة آلاف من الديلم (الحمراء).

كان من بين المهاجرين الاوائل حوالي ٣٧٠ شخصاً من اصحاب النبي(ص) من المهاجرين والانصار^{١٦}، ونستطيع ان نذكر منهم شخصيات بارزة كعبد الله بن مسعود، عمار بن ياسر، حذيفة بن اليمان، البراعة بن عازب، سلمان الفارسي، زيد بن الارقم الاشعري، وقد ذكر ابن سعد^{١٧}: ان سبعين شخصاً من الصحابة كانوا من الذين اشتركوا فى معركة بدر وثلاثمائة شخص من الذين حضروا بيعة الرضوان. وسكان

الكوفة بسمتهم غير المتجانسين قد مهدوا الفرصة المناسبة لايجاد النظام السياسى والاجتماعى الاسلامى الذى كان فيه النظام الاسلامى يسيطر على الكيان العربى، والقيم السائدة فى الوجود او النظام القبلى العربى. فقد تجلت هذه السياسة بوضوح فى انتخاب عمار بن ياسر الذى لم يكن لديه اي امتياز قبلى حاكماً للكوفة، وعبدالله بن مسعود وصياً ونائباً له.^{١٨}

اذن فى صدر الاسلام كان للكوفة مكانة عالية حتى سماها عمر بن الخطاب قبة الاسلام، ووصف أهلها برأس اهل الاسلام، ورمح الله، وذخر الايمان، وجمجمة العرب^{١٩}. كما ان ياقوت^{٢٠} ذكر كلاماً مشابهاً فى وصف الكوفة منسوباً الى الامام على (عليه السلام) جاء فى كتاباته: قال الامام ان الكوفة كنز الايمان وحجة الاسلام وسيف الله، سيجعل الله اهل الكوفة منتصرين فى مشارق الارض و مغاربها، كما فعل بالحجاز وسلطها على العالم كله.

كما ان سلمان الفارسي قال عن الكوفة: الكوفة قبة الاسلام، واهل الكوفة اهل الله، قد يخفق قلب كل مؤمن لاهل الكوفة^{٢١}. وفى الواقع ان الميزات الهيكلية الجماعية للكوفة، والحركة الدائمة وانتعاشها فى مختلف المجالات السياسية والفكرية فى القرن الاول قد هيأت هذه المكانة الهامة الممتازة لها.

كانت الكوفة كمقوم اساسى فى نظام الامصار ملجأً لفاثي العراق منذ بداية حركة الفتوحات الاولى الى عام ٣٠ للهجرة، على الاقل اعني عندما نالت البصرة مكانتها الرفيعة خلال فتح شرق ايران، و من ناحية أخرى فأن الكوفة يردها القسم العظيم من عوائد السواد.

وهذا الامر تحول الى احد الاسباب الرئيسية بـ بروز الخلافات بين ساكني الكوفة فيما بعد، لان القبائل المختلفة التي لم تشارك فى المعارك الاولى المتقدمة (الروادف) حيث هاجرت الى الكوفة وطلبت المشاركة فى اموال الكوفة وثرواتها دفعاً لعدم حضورهم فى المعارك المتقدمة

الكوفة كانوا طوال خلافة علي(ع) منقادين اليه كارهين النزعة العثمانية.

كانت مخالفة عثمان في الكوفة شديدة الى الحد الذي كان جرير بن عبدالله البجلي قد قال: لن ابقى في مدينة يُسب فيها عثمان علناً^{٢٥}. الا ان اهل المدينة المنورة و ان كانوا قد بايعوا علياً (ع)، الا انهم قد انزعزلوا عن مسرح السياسة بشكل تدريجي، وقد انزروا سياسياً و بشكل ملحوظ في الوقائع والاحداث اللاحقة.

وفي عهد خلافة الامام علي (ع) حيث في البدء كانت المدينة المنورة عاصمة للخلافة، الا ان اهلها كانوا منعزلين وغير متفاعلين ازاء الاحداث الساخنة و الوقائع الجارية التي كانت تعصف بالخلافة وبالدولة الاسلامية، كثورة الناكثين لبيعة علي (ع) و وقوع معركة الجمل في البصرة، كما ينقل النويري في نهاية الارب^{٢٦}، وايضاً الشيخ المفيد ان عبد خير الخولاني قال في المحاجة مع ابي موسى الاشعري « الا ترى ان الناس اليوم قد انقسموا الى اربع فرق: اهل الكوفة مع علي (ع) ... و اهل الحجاز (المدينة) واقفون جانباً ».

ان اهل المدينة قد انزعزلوا عن كلتا الفرقتين او عن كلا الخطين اي خط علي(ع) وخط طلحة والزبير وعائشه ام المؤمنين. وان اهل الكوفة لم يلبوا دعوة عائشة التي ارادت مساعدتهم^{٢٧} كما انهم لم ينصروا علياً (ع) و يؤكد ذلك الطبري بما اورد من روايات^{٢٨} حيث ان اهل الكوفة كانوا مذبحين، وما كان لهم ان يدركوا اي الحزين على سبيل النجاة والحق، و ان يتخذوا قراراً حاسماً و موقفاً صريحاً قاطعاً^{٢٩}.

وفي غضون ذلك مع ان جو الشبهات والشكوك والتردد كان مخمياً على ارض العراق و مدنه، لكنه بما انه يحتوي على الثروات الهائلة والاموال الطائلة من جهة، و وجود القوات المقاتلة منذ عهد الفتوحات الاسلامية من جهة أخرى، كان الموقع الاهم والاصلح من الحجاز، للاطراف المتنازعة على

خاصة معركة القادسية، وفي تعبئة القوات سنة ٢١ للهجرة لمعركة نهاوند، كان الروادف من اكثر المقاتلين تحمساً، وقاموا بعرض البطولة والشجاعة التي لامثيل لها.

حتى ان الخليفة الثاني قد غير سياسة الديوان، وجعل اجورهم متساوية مع اجور المهاجرين الاوائل واهل القادسية^{٢٢}.

كانت المساواة والوفاق الجماعي في عهد خلافة عمر مشهوداً، الا انه في عهد خلافة عثمان ظهرت الخلافات الداخلية تدريجياً، ففي عهد عمر لم يكن لرؤساء القبائل القدرة الكافية لتنفيذ امرهم، الا انه في عهد خلافة عثمان حيث نصب الوليد بن عقبة، الاخ غير الشقيق له (اخوه لامه) والياً للكوفة و استطاع بذلك رؤساء القبائل ان يحصلوا على امتيازاتهم المفقودة من جديد. بحيث ان الرواد الاوائل الذين كانوا قد ضحوا وجاهدوا، ايام الخليفة الثاني اُبعدوا و حلّ محلهم غيرهم تبعاً للنظام القبلي والعشائري المدعوم من الوالي الجديد.

وفي هذه الظروف العصبية نجد أن الكثير من اشراف الصحابة والتابعين ومن قراء القرآن الاوائل^{٢٣} أمثال مالك الاشر النخعي، ويزيد بن قيس الازجبي، وعدي بن حاتم الطائي، وصعصعة بن صوحان العبدى قد أقصوا وحل محلهم، رؤساء و اشراف القبائل و يعتبر نفس هذا التغيير في هيكلية القدرة في الكوفة من أهم الاسباب التي اودت بتفاقم رقعة المعارضة على عثمان حتى بلغت ذروتها في النهاية بقتله، على ايدي الثوار، حيث ان قوات من اهل الكوفة قد اشتركت في ذلك بفاعلية تامة، كما ان من خالف عثمان قدموا من مختلف الامصار، وبايعوا علياً عليه السلام بشكل حاسم كما هو عليه اهل الكوفة و مصر، وهكذا تولى علي عليه السلام الخلافة، وكان اهل الكوفة اول من بايع علياً^{٢٤}.

وكان طابع التشيع لاهل البيت عليهم السلام غالباً في الكوفة، بمعنى انهم ليسوا من اتباع الخط العثماني، فاهل

مركز القرار، فعندما توجه عبدالله بن عامر الوالي للخليفة الثالث في البصرة [الذي بشر الناكثين سلفاً بان مائة الف سيف ستساعدهم في البصرة]^{٣٠} عندما توجه الى الحجاز واجه معارضة و توبيخاً شديدين من جانب طلحة و الزبير كما ان الوليد بن عقبة انشد أبياتاً مطلعها^{٣١}:

تركت العراق و فيه رجال

و جئت الى البلدة الخاملة

كما كتب الشيخ المفيد^{٣٢} لما إطلع علي عليه السلام على هجرة طلحة والزبير الى البصرة إستشار أصحابه كعبدالله بن عباس، وعمار بن ياسر وغيرهم في كيفية مواجهة الناكثين، قال عمار «الصوب ان تتوجه الى الكوفة لان اهلها شيعتنا...» هذه الرواية و روايات أخرى تذكر لنا ان اشتراك البعض من الكوفيين مع جيش علي (ع) في معركة الجمل تعبر عن حضور وفود من مؤيدي علي(ع) في هذه المدينة، بالاضافة الى الدور الكبير لابي موسى الاشعري ودعاياته و دعوته الناس الى الصمت والانزال والابتعاد عن وقوع الفتنة^{٣٣} الا اننا لا نستطيع التغاضي عن وجود العدد الكبير من الكوفيين ممن لم يدافعوا عن علي (ع) عندها سار بركبه الى الكوفة وعند وصوله الى ذي قار كتب رسالة الى اهل الكوفة قال فيها^{٣٤} «من عبد الله على امير المؤمنين الى اهل الكوفة جبهة الانصار و سنام العرب....»

اعلموا ان دار الهجرة قد خلعت باهلها وقلعوا بها وجاشت جيش المرجل وقامت الفتنة على القطب فاسرعوا الى اميركم وبادروا جهاد عدوكم ان شاءالله».

بعد ذلك ارسل هاشم بن عتبة بن ابي وقاص وبعده ارسل ولده الحسن بن علي عليهما السلام وعمار بن ياسر الى الكوفيين.

وعندما دخل الامام الحسن (ع) وعمار بن ياسر الى مسجد الكوفة كان ابو موسى الاشعري في المسجد وكان الناس حوله وكان ابو موسى يقول «يا اهل الكوفة أطيعوني تكونوا جرثومة من جراثيم العرب، يأوي اليكم المظلوم ويأمن

فيكم الخائف، ايها الناس إن الفتنة إذا اقبلت شبّهت وإذا أدبرت نبّهت، وان هذه الفتنة الباقرة لايدري من اين تأتي، ولا من اين تؤولي، شيّموا سيوفكم، وانزعوا أسنّة رماحكم، واقطعوا اوتار اقواسكم، والزمو بيوتكم، ايها الناس ان النائم في الفتنة خير من القائم، والقائم خير من الساعي^{٣٥}.

قام الامام الحسن (ع) وعمار وعاتبا اباموسى الاشعري ودعوا الناس الى قتال الناكثين، وان ينصروا علياً (ع).

ثم خطب حجر بن عدي الكندي - والذي كان من كبار اهل الكوفة - مؤكداً الوقوف الى جانبهما و لنصرة اميرالمؤمنين (ع) بعد ان حث الناس و استنهضهم.

لهذا لبي جمع غفير دعوتهم واستجابوا كما ورد في رواية الدينوري^{٣٦}: ان جمعاً من اهل الكوفة بايعوا علياً في منطقة ذي قار واشتركوا معه في معركة الجمل في البصرة.

اراد علي (ع) بعد انتهاء معركة الجمل و الفراغ من صراع طلحة والزبير وعائشة ان ينقل المركز السياسي من المدينة المنورة الى الكوفة كما ورد في بعض الروايات ان خروج علي (ع) من المدينة الى البصرة لحرب الجمل كان بمثابة ترك و هجره للمدينة هجرة أبدية، مما ادى الى قلق الكثير من الصحابة واهل المدينة واضطرابهم، كما ان بعض الصحابة امثال ابي ايوب الانصاري، وعبدالله بن سلام وعقبة بن عامر، حاولوا ان يمنعوا علياً^{٣٧} من ترك المدينة وهجرتها، الا ان الامام(ع) اعلن اسباب نقل عاصمته «كون الاموال و الرجال في العراق، ولزوم قربه من اهل الشام، لدفع تمردهم وخروجهم المتوقع عليه»^{٣٧}.

اذن تعتبر مكانة الكوفة الاستراتيجية، والاضاع السائدة في العراق، وتجمع المقاتلين ورجال العرب السياسيين فيها، بالاضافة الى الامكانيات الموجودة فيها ومركزيتها الاقتصادية، وكونها بالقرب من الشام - التي كانت تعتبر بالقوة وبالفعل تهديداً للإسلام وللمسلمين وللخلافة الامام علي (ع) - تُعدّ من اهم الادلة والاسباب لانتقال مركز الخلافة من المدينة الى الكوفة.

الايرائية كالمداين و جبال واصفهان وسجستان وخراسان، بعد اقامته بالكوفة بقليل^{٤٣}.

مما يكشف لنا ان لمعالجة الامور فى الولايات المفتوحة كانت اهمية كبيرة فى هذا العهد خاصة لان حركات متعددة ظهرت فى بعض الولايات الايرانية، وكانت مواجهتها من الضرورات، كما ان اهل استخر تمردوا بعد مقتل عثمان، فأمر علي (ع) عبدالله بن عباس مواجهتهم وسحق تمردهم.^{٤٤} وذات مرة اراد خمسة الاف من العرب غزو الديلم بتشجيع من علي (ع)^{٤٥}. وفي نفس الوقت نزل الماهوى السوراني، وهو حاكم مرو من قبيلة سوران الشهيرة (وهى من القبائل او العشائر المهمة وذات المكانة العالية فى عهد الاشكانيين والساسانيين) فى الكوفة نزل عند علي (ع) وصاحبه لفترة، وقيل ان علياً أمر الملائكين والمختارين وزعماء القرى ان يعطوا الخراج وحزيتهم له^{٤٦}. وبعد استقرار (ع) فى الكوفة بقليل نقض اهل نيسابور عهدهم، وامتنعوا من دفع الخراج والجزية، فارسل علي (ع) قواته الى خراسان ففتحوا نيسابور ودخلوا مرو صلحاً. كما ان الخلافات الداخلية فى البصرة اسفرت عن تمرد اهل فارس وكرمان الذين طردوا واليههم. مما اضطر الامام (ع) ان يرسل زياد بن ابية الى ولايات فارس وكرمان سنة ٣٩ للهجرة حيث تمكن من القضاء على تمردهم وارجاعهم الى حياض الاسلام، وبالنظر الى ارسال علي (ع) الرسائل واصدار الاوامر الى عماله فى آذربيجان، واستخر، وأردشير خوره وبقية المدن والبلاد الاخرى^{٤٧} نجد ان علياً كان يهتم كثيراً بامر الولايات المفتوحة ومعالجة امر خراجهم.

و بهذا اصبح امر الاستقرار فى العراق هاماً لقربه من ايران من جهة، ومعالجة امور الولايات المفتوحة من جهة أخرى.

كما يرى بعض المحققين^{٤٨} ان دخول علي (ع) الكوفة لم يكن بهدف جعل الكوفة عاصمة لخلافته فحسب، بل كان لتنظيم الكوفيين لمواجهة معاوية، لهذه الاسباب التي ذكرناها ولولاها ما كان الامام علي (ع) يستطيع مراقبة الاوضاع

عندما أخبر علي (ع) وهو فى الربذة، ان الناكثين متوجهون نحو البصرة، شعر بالراحة و قال: أحب اهل الكوفة كثيراً. بما ان كبار العرب منهم، وكتب لهم إنني اخترتكم من بين الامصار الاخرى وانا الان فى طريقي اليكم^{٤٨}، كما نقلت رواية اخرى نفس هذه الرسالة مع بعض اضافات قال فيها «فاني اخترتكم والنزول بين اظهركم لما أعرف من مودتكم وحبكم لله عزوجل والرسول (ص) فمن جاءني ونصرني فقد أحاب الحق وقضى الذى عليه»^{٤٩}.

وعندما اقترب من الكوفة واشرف عليها قال «ويحك يا كوفان، ما أطيب هواءك، واغذى تربتك، الخارج منك بذنوب، والداخل اليك برحمة، لاتذهب الايام و الليالي حتى يجيء اليك كل مؤمن، ويبغض المقام بك كل فاجر، وتعمرين حتى ان الرجل من اهلك ليبكر الى الجمعة فلا يستطيع اللحاق لبعد المسافة»^{٤٩}.

قدوم علي (ع) الى الكوفة اعطاها الصفة الرسمية، بمعنى ان الاوضاع الجديدة اعطت الامصار التفوق على الجزيرة العربية، لتشخيص مصير العرب السياسي، وبشكل عام مصير العالم الاسلامي، وبهذا تحولت الكوفة الى مركز وعاصمة الخلافة ومحل اتخاذ القرارات الهامة بدلاً من المدينة.

دخل علي (ع) الكوفة يوم الاثنين الثاني عشر من شهر رجب سنة ٣٦ للهجرة^{٤٩} ورفض دعوة كبار اهل الكوفة فى الدخول الى دار الامارة، فنزل فى الرحبة (وهي حي من أحياء الكوفة، بمعنى الصحن ومبيت القوافل) واقام فيها^{٤٩}.

بالاضافة الى آثار وميزات العراق السياسية والاقتصادية فى انتقال مركز الخلافة من المدينة الى الكوفة، اننا لا نستطيع الا ننتهز، او نغض الطرف عن كون العراق بالقرب من البلاد الشرقية للخلافة التي كانت اكثر مدتها مفتوحة حتى زمن الخلافة.

وان الاهتمام الخاص من قبل الامام علي (ع) فى أمر الولايات المفتوحة وارسال العمال و الولاة الى مختلف المدن

السياسية في البلاد الاسلامية من المدينة، نظراً الى الفراغ السياسي السائد فيها وبعد مسافتها.

وبعد الاستقرار في الكوفة، حاول الامام علي (ع) توحيد وتجديد النظام القبلي وسعي لاعادة زعماء الدين السابقين الى الساحة من جديد، اولئك الذين أبعدوا وأقصوا بسبب السياسات المحورية القبلية في عهد عثمان، وفي هذه الفترة عاد رجال كمالك بن حارث الاشتر النخعي وحجر بن عدي الكندي وعدي بن حاتم الطائي الذين كانوا من رؤساء قبائلهم الى النفوذ من جديد، هؤلاء شكلوا اسس شيعة الكوفة العاصمة الا ان اشراف وزعماء القبائل ما كان لهم ان يقبلوا هذه الاوضاع الجديدة والتي كانت تروج لسياسة العدل والمساواة في حقوق الناس سيما الامور الاجتماعية والاقتصادية والسياسية مما يؤدي الى تضييع قدرتهم، هؤلاء الاشراف الذين اشتركوا في المعارك الاولى، وكانت اسمائهم في قائمة (عطاء الاشراف). بمعنى اصحاب الاجور العالية في الديوان، ابتعدوا عن علي (ع) وانزلوا، وما اهتموا به ولا بأهدافه وآماله وافكاره، ولم ير الاشراف انهم محتاجون لعلي (ع) من الناحية المالية او الاجتماعية، لان اهدافهم كانت طامحة، كما ان التكتلات الاجتماعية التي تبعتهم في الكوفة كانت لهم نفس هذه الرؤية بالنسبة الى علي (ع)، لهذا كان رؤساء القبائل اكثرهم ليس لديهم رغبة في الحرب ضد معاوية، وبروح فاقد الامل و الارادة توجهوا الى حرب صفين وبشغف كثير رحبوا وفرحوا بالصلح المقترى الذي ادى الى التحكيم. ويعتقد بعض المحققين⁴⁹ ان رؤساء القبائل وتابعيهم أجبروا علياً (ع) على التسليم لأمر التحكيم، وما كان لقراء الكوفة كما هو الظاهر دور في هذا الامر. بما ان ابا موسى الاشعري كان يدافع عن سيطرة قريش واستيلائهم بشكل تام، فيجب عليه ان يكون قد وثق برؤساء القبائل.

بناءً على هذا النسج الفكري لهذا الخط او لهذه الفرقة نستطيع ان نثق بقسم من هذه النظرية التي تؤكد على دور

اشراف القبائل وكبارهم في معركة صفين، الا انه يجب علينا ان نناقش القراء بشكل خاص غير ان بعض قراء الكوفة كمالك بن حارث الاشتر النخعي، وحجر بن عدي وعدي بن حاتم الذين كانوا من شيعة علي (ع) المخلصين. وأما القراء الآخرين في صفين وبناءً على تعصبهم وتمسكهم الظاهري ما ان رأوا المصاحف على الرماح حتى انسحبوا و ابوا ان يقاتلوا، و لكنهم في واقع الامر تصرفوا ما أراد منهم اشراف القبائل وارضاءاً لهم.

الا اننا لانستطيع ان نعبر عن تنسيقهم هذا مع رؤساء القبائل كان ترسيخاً لهم عدنائياً او قحطانياً في سبيل الوصول الى اهدافهم و منافعهم ومطامعهم، لان التيار المخالف للحكمية والذي سُمي فيما بعد بالحكمة ثم الحورية واخيراً الخوارج، كان اكثرهم من مهاجري القسم المركزي والقسم الشمالي الشرقي للجزيرة العربية من قبائل بكر وقيم، الذين كانت منازلهم بالقرب من العراق وضة الفرات او على حدودها، هذه المسألة تبين لنا ان بواعث مخالفي الحرب في صفين لم تكن منبعثة من التعاليم الدينية والقرآنية.

لو كان كذلك لانضم جميع القراء الى الجبهة المخالفة للحرب، وبالتالي الى الخوارج بغض النظر عن أسسهم القبائلية وتابعيتهم.

اما الواقع فلم يكن كذلك، حيث ان قسماً من القراء ارادوا ان يظهر تيار الخوارج في المجتمع الاسلامي الحديث البناء والنشأة، اي في القسم الذي لم يكونوا فيه من طبقة المهاجرين او من الانصار، بل من طبقة التابعين اسناداً لهذه الآية الشريفة: «والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان...» (التوبة آية رقم ١٠٠).

هذا يعني ان جميع القبائل التي اسلمت بعد فتح مكة المكرمة في السنة الثامنة للهجرة كقبيلتي بني بكر بن وائل وبني تميم الكبيرتين كانوا من التابعين، وما كان لهم من الحقوق السياسية والاجتماعية والاقتصادية من نصيب، والذين لم تكن لهم الحقوق السياسية والاجتماعية في المجتمع كما

١٥٠ حتى ٢٥٠ للهجرة والكوفة الايدولوجية (العقائد الصرفة) بين سنة ٢٥٠ الى ٣٥٠ للهجرة والتي تحولت الى مركز عقائدي للشيعة.

ان من نشاطات الكوفة السياسية بعد استشهاد الامام علي(ع) والتي مهدت الطريق لاستقرار الفكر الشيعي في الاجيال الآتية خاصة بين التابعين، حركة حجر بن عدي الكندي سنة ٥١ للهجرة، لقد قام شيعة الكوفة بزعمامة حجر بن عدي الكندي برجم ممثل زياد بن ابية امير البصرة والكوفة في المسجد، فجاء زياد من البصرة الى الكوفة، وسحق شيعة علي(ع) وقتل الكثير منهم،... وبالتالي همدت الكوفة وخضعت لخلافة بني أمية. غير انه في بداية خلافة يزيد نهضت الكوفة مرة أخرى، وقام شيعة الكوفة بدعوة الامام الحسين بن علي(ع) الى العراق والذي امتنع عن بيعه يزيد بن معاوية، ولكن عندما اختار يزيد عبيد الله بن زياد اميراً للكوفة، وقتل مسلم بن عقيل سفير الحسين(ع) ومثله، وبدد شيعته، واجه الامام الحسين(ع) اوضاعاً قاسية وصعبة، فحدثت واقعة كربلاء التي ادت الى كره المسلمين لبني امية واسفرت عن ظهور ردود افعال، خاصة عند شيعة اهل البيت(ع).

فما لبث حتى استشهد الامام الحسين(ع) وحتى ظهرت بوادر و آثار اليأس و الندامة بين صفوف الشيعة، ووقعت ثورة التوابين في طلب الثأر والاقتصاص من قتلة الامام الحسين(ع) بزعمامة سليمان بن صرد الخزاعي ومسيب بن نجبة الفزاري، ومحاربة ابن زياد في عين الوردة، وقد اخفقت هذه الثورة وقتل الكثير منهم بامر من عبيد الله بن زياد ولكن مما ادى ذلك الى ترسيخ العقيدة و اظهار الحق والمطالبة بثور الامام الحسين(ع) بين الكوفيين، كما ان المتبقيين من التوابين والتكتلات والفرق المتأثرة بثورتهم، واستمراراً لهذه النهضة التحقوا بالمختار بن ابى عبيدة الثقفي. والبحث حول ثورة المختار والفرق التي تبعتها وناصرته يظهر لنا اهم النتائج لانتقال مركز الخلافة من المدينة الى الكوفة ومركزيتها. فمن النتائج الهامة لانتقال العاصمة هذه كانت مناصرة العدد الكبير

كان للمهاجرين والانصار، لهذا كان لروح المنافسة القبليّة دور هام في ظهور الخوارج الذين كان اكثرهم من قبائل بني بكر و تميم. لذا نجد ان جمعاً من القراء بدأوا بالوقوف الى جانب الحكمية ولكنهم في النهاية قاموا ضدها، وشكلوا فرقة جديدة تسمى بالخوارج. بعد وقعة الحكمية، لم يكن لعلي(ع) ان يصمد على غير عدد قليل من شيعته المخلصين، مع انزال المتعصبين من القراء والمحافظين من الاشراف، فقد ترعزت اسس الائتلاف الذي أوجده علي(ع)، فبعد هذا تحولت الشيعة الى أقلية، وافتقدت قدرتها لفترة طويلة.

وفي الحقيقة يمكن القول بان مساعي علي(ع) وجهوده قد فشلت في تأسيس الائتلاف السياسي الذي يشتمل على النظام القبلي المرتكز على المعنى الحقيقي للمسلم يومها هذا من جهة، ومرتكز على الفضل والشرف، نظراً الى ان الخلفيّة الاسلاميّة، والالتزام بالقيم الدينية من جهة أخرى. فكان الضغط من جانب الشام كبيراً، وكان هناك انفصال كبير بين متشددي الكوفة، القبلي منهم والفكري كالأشعث من جهة والخوارج من جهة أخرى، وما كان هناك حل متصور (بناءً على ائتلافهم) لهذه المشكلة غير ان معاوية عندما سيطر على الكوفة لم يكن بحاجة الى اجراء المصالحة لانه بني الامور على النظام القبلي، واحتظي بكل من يستطيع ان تكون له مكانة او منزلة كزعيم القبيلة^{٥٠}.

نتائج انتقال مركز الخلافة من المدينة المنورة الى الكوفة

الكوفة قامت باداء دورها السياسي الهام في القرن الاول وكانت منشأ و ملهم الكثير من الوقائع والمضامين التي وجدت اعتبارها في المستقبل السياسي والفكري للاسلام والتشيع، الا انها في القرن الثاني فقدت اعتبارها على الرغم من انها من الناحية الفكرية والثقافية توسعت الى ان وصلت الى ذروتها بين السنوات ١٥٠ الى ٢٥٠ للهجرة، في الواقع نستطيع ان نقسم احوال الكوفة الى ثلاث مراحل، الكوفة السياسية حتى سنة ١٥٠ والكوفة الثقافية بين سنة

من موالى الكوفة والمسلمين الايرانيين و التى تظهر لنا انتقال التشيع ونضوجه وانتشاره بين الايرانيين وغير العرب في الكوفة.

هذه النتيجة قد ظهرت وبرزت في الكوفة بعد حوالى ربع قرن من شهادة الامام علي(ع) لهذا رأى البعض من المحققين،^١ ان آثار التشيع وانتشاره بين الايرانيين قد ابتدأ بعد القضاء على (هضبة) الشيعة في الكوفة بزعمامة المختار دعماً لحمد بن الحنفية وهذا غير صحيح لان معرفة الايرانيين التشيع قد ابتدأ في عهد الامام علي(ع)، ومع الاسف ان الاخبار التى جاءت من بعض المصادر عن معرفة الايرانيين علياً(ع) و طريقتهم في التصرف معه في الكوفة شحيحة جداً، لكن جاء في بعض الاخبار ان الكثير من الايرانيين الذين كانوا من سكان القرى العراقية وكذلك الكوفة قد تجمعوا حول الامام و اجرى مثلهم نرسا حواراً مع علي(ع) والذي يعتبر هاماً وملفتاً للأنظار.

كما جاء في رواية نصر بن مزاحم^٢ «لما قدم علي(ع) حشر اهل السواد، فلما اجتمعوا اذن لهم، فلما رأى كثرتهم قال: اني لا اطيق كلامكم ولا أفقه عنكم فأسندوا أمرهم الى ارضاكم في انفسكم، وأعمه نصيحة لكم. قالوا: نرسا، ما رضى فقد رضينا، وما سخط فقد سخطناه. فتقدم فجلس اليه، فقال: أخبرنى عن ملوك فارس كم كانوا؟ قال: كانت ملوكهم في هذه المملكة اثنين وثلاثين ملكاً، قال كيف كانت سيرتهم؟ قال: مازالت سيرتهم في عظم أمرهم واحدة، حتى ملكنا كسري بن هرمز فاستأثر بالمال والاعمال، فأوغر نفوس فارس، حتى ثاروا عليه فقتلوه، فأرملت نساؤه ويتم أولاده، فقال يا نرسا، ان الله عزوجل خلق الخلق بالحق، ولا يرضى من احد الا بالحق، وفي سلطان الله تذكرة مما حول الله، وانها لا تقوم مملكة الا بالتدبير، ولا بد من اماره، ولا يزال امرنا متماسكاً ما لم يشتم آخرنا أولنا، فاذا خالف آخرنا أولنا و افسدوا هلكوا واهلكوا ثم أمر عليهم امراءهم».

اضافة الى ان الايرانيين الذين كانوا يزورون علياً أحياناً، كان بين اكثر سكان العراق الذين كانوا من الايرانيين اللاحقين بالقبائل العربية بعد الفتوحات و المعروفين بالموالى وبين علي(ع) علاقة شديدة جداً، وكانت لهذه الموالى بعددهم الكبير من حيث المواقع و الحقوق الاجتماعية والاقتصادية مكانة سفلى بالنسبة الى العرب طوال خلافة عمر وعثمان، حيث توسعت الفتوحات توسعاً باهراً، وكانت العنصرية بين العرب من جهة وغيرهم من القوميات من جهة أخرى مشهودة في المجتمع. لذا نجد ان في خلافة علي(ع) واتخاذ سياسة المساواة بين المسلمين من اى قوم او قبيلة او عرق كانوا، و مراعاة العدالة في جميع حقوق الانسان كانت من الطبيعي ان تكون طبقة الموالى قد اتجهت اتجاهات تاماً نحو علي(ع) و سياسته و افكاره، و بالعكس، ان كثيراً من العرب الذين فقدوا امتيازاتهم الغير المشروعة قد اعرضوا عنه^٣. قياساً بين علي(ع) وعمر، كان المغيرة يقول: توجه علي(ع) و رأفته بالموالى كان اكثر منها الى العرب، وكان عمر بعكس ذلك لا تعجبه الموالى،^٤ كما ذكر ابو اسحاق الثقفي^٥ ان ذات يوم كان علي(ع) يخطب في المسجد، فاتاه أشعث بن قيس الكندى و الذي كان من اشراف العرب وزعمائهم واضعاً قدميه على رؤوس المصلين (الموالى) واكتفهم واقترب من علي(ع) و قال: يا امير المؤمنين حمر الوجوه هذه (الايرانيون) قضوا علينا امام عينيك ولا تمنعهم، قال علي(ع): هؤلاء أنفسهم يستريحون في فراشهم طوال اليوم و هؤلاء (الموالى و الايرانيون) يعملون طيلة النهار الحار لرضى الله، أفتريدون مني ان أطردهم حتى اكون من الظالمين، فوالله الذى فلق الحبة و خلق النسيمة سمعت رسول الله(ص) يقول: والله كما انكم ضربتم (الايرانيين) بسيفكم لاجل الاسلام، فانهم سيضربونكم بسيفهم من اجل الاسلام. اضافة الى الرعايا الايرانيين والموالى فان الكثير من الكبار والملاكين الذين كانوا يتمتعون بالنفوذ و القدرة و الثروة من عهد الساسانيين بعد الفتوحات، اما اسلموا او تصالحوا مع

ايرانيون اشتركوا فى واقعة كربلاء، و دافعوا عن الامام الحسين(ع) و استشهدوا^{٦١}.

و لقد ادى دعم المختار الموالى الى اعراض العرب عنه،^{٦٢} وهذا يبين لنا بوضوح الصراع السائد بين منافع الخطيين المذكورين، و الذى ترجع أسسه الى السياسة العنصرية القومية الموجودة قبل خمسة عقود.

و فى بداية عام ٦٦ للهجرة بدأ المختار دعوته باسم محمد بن الحنفية، وقد اعلن محمد ضمناً عن رضاه^{٦٣} بعد ان قضى المختار على خصومه فى الكوفة انتخب عماله وقادته من بين الطبقات السامية ومقاتلى العرب واشرافهم، الا ان اهتمامه بالمستضعفين كان المحور الرئيسى لخطته. يفهم من استعمال هذا المصطلح (المستضعفين) والذى كان يشتمل مفهوماً و مصداقاً واسعاً، ان المختار قصد من استعمال المسلمين غير العرب، بمعنى الموالى (الايرانيين).

كان يشكل الموالى آنذاك نصف سكان الكوفة، الذين كانت التجارة والصناعات اليدوية، والخدمات الحكومية فى قبضتهم.

انتخب المختار جيشه الخاص من بين الموالى، مع ان المناصب الخطيرة والمراكز الهامة كانت قبل ذلك فى قبضة العرب، هذه السياسات اسفرت عن استياء الاشراف وبالتالي لم يساندوا المختار، حتى انفصلت الفرق الكثيرة من اشراف القبائل عن المختار فى معركة عام ٦٦ للهجرة فانفصل عدد كبير من كبار اهل الكوفة عنه كرفاعة بن شداد الفتيانى وكان من القرءاء المعروفين و صديق حميم لسليمان بن صرد الخزاعى، كان شعار جيش المختار: بالثارات الحسين، وكان شعار جيش عبيدالله بن زياد: بالثارات عثمان، وفى النهاية انتصر جيش المختار على جيش عبيدالله بمساعدة الايرانيين.

كما يعبر فلهاوزن^{٦٤} ان التشيع قد اتخذ طابعاً ومظهراً جديداً فى الكوفة بعد ثورة المختار، حيث كان قبل ذلك تياراً سياسياً شاملاً، و حيث استطاع اهل العراق ان يحاربوا

العرب وقاموا باداء دورهم فى تشجيع الناس الى قبول الاسلام بين الملاكين الايرانيين الذين اسلموا امثال جميل بن بصهرى مالك الفلاليج و النهرين وبسطام بن نرسى مالك بابل والخطرنية و فيروز مالك نهر الملك، كانوا ذائع الصيت^{٦٥}.

وفى فتح الحيرة ومناطقها الشمالية لقد تصالح الدهاقين بشكل تدريجي مع خالد بن الوليد، وقاموا بدفع حزبتهم له بشرط ان تبقى ممتلكاتهم بأيديهم،^{٦٦} و بعد ان انتصر المسلمون فى القادسية، و تقدموا نحو المدائن و بأمر من عمر قد أمن المالكين واتباعهم فى السواد و بقوا على اموالهم، وخضعوا لدفع الجزية، فكانت هذه من الاسباب الرئيسية التى ادت الى توجهم للاسلام^{٦٧}. وكان انسحاب بعض الامراء والاشراف والمالكين ورجال الدين (الزردشتى) امام اجتياح العرب واقبالهم على الاسلام واتفاقهم مع العرب المسلمين من اهم الاسباب الرئيسية فى اسقاط دولة الساسانيين، وتحول ايران الى ايران الاسلامية بشكل تدريجي^{٦٨}. لقد اسلم الاثرياء والمالكين فى عين التمر ايضاً فى عهد علي(ع)، بالاضافة الى تبين وترويج واستقرار خط التشيع لاهل البيت(ع) بين التابعين فى العراق، كان اطلاق وتوجه وانتماء الايرانيين الى علي(ع) وبالتالي الى التشيع من النتائج الرئيسية لانتقال مركز الخلافة من المدينة الى الكوفة، كما جاء فى بعض الروايات عند ما كان علي(ع) فى المدينة ما كان يعرفه الاً الصحابة،^{٦٩} لكنه بعد وصوله الى العراق واستقراره فى الكوفة عاصمة له، نجد ان ابناء الصحابة والتابعين ممن لم يدركوا النبى(ص) اعجبهم شخصية الامام علي(ع) الفذة، وكذلك غير العرب من الايرانيين القاطنين فى العراق و كذلك من فى الكوفة.

لقد ظهر الميل والاقبال الشديد الى التشيع بين الايرانيين بعد ربع قرن من استشهد الامام علي(ع)، و مشاركتهم فى ثورة المختار، كما ورد فى بعض الروايات، كان هناك

بفضلة القوة المركزية في الشام. كانت في البدء اغلبية ساحقة من اشراف القبائل الكوفية مندجين مع الآخرين، وكانت قيادة الناس بايديهم، لكنهم بعد ان شعروا بالخطر تنازلوا امام الحكومة الاموية من اجل القضاء على الثورات الشيعية، وهكذا انفصلوا عن الشيعة، وقد واجه الشيعة الحصار والتضييق في الكوفة، وتحولت بشكل تدريجي الى فرقة دينية مخالفة ومعارضة للارستوقراطية و للنظام القبلي، وبفضل جهاد واستشهاد قادتها وتابعيهم تحولت الى ايديولوجية مثالية، حيث نجد ان انصار سليمان بن صرد انساقوا الى القيام بثورة ضد الارستوقراطية القبلية في الكوفة، الا ان المختار كان اول من قام بانجاز هذا الامر وحققه، كما ان الموالي قد التحقوا بهذه الحركة انتماءً بالسلطة الدينية. كما ان الثورات الاخرى التي كانت دوافعها دينية مماثلة ومشابهة بالثورات السابقة كثورة زيد بن علي (ع) عام ١٢٢ للهجرة وثورة عبدالله بن معاوية عام ١٢٧ للهجرة، لطالما ادت الى ظهور النشاطات والاشتباكات السياسية في الكوفة.

وفي النهاية قامت الكوفة بدورها الحاسم في اسقاط الخلافة الاموية لتحل محلها الدولة العباسية الساعية للانتصار والثبات. كما ان الخليفة العباسي الاول قد اعلن عن خلافته بصفة رسمية في مسجد الكوفة الكبير عام ١٣٢ للهجرة النبوية المباركة.

هذا العدد الكبير من الثورات والانتفاضات والاضطرابات والاحداث السياسية ادت الى وصف الكوفة بأنها مدينة ناكثة وذات حماس واحياناً طامحة.

الملاحق

١- لمزيد من الاطلاع على تأريخ منازل اليهود، والاوز والخزرج، واحيائهم، وحصونهم الخاصة في يثرب قبل الاسلام يمكنكم مراجعة الخياري، تأريخ معالم المدينة المنورة قديماً وحديثاً، ١٩-٣٧

٢- السمهودي، وفاء الوفاء، ١/٣٢٢

٣- يعقوبي، البلدان، ٩٣

٤- السمهودي، ١/٢-٣: للاطلاع على هيكلية المدينة الاجتماعية و موقعها الاقتصادي قبل الاسلام وبعده، يمكن مراجعة عبدالله بن عبدالعزيز بن ادريس، مجتمع المدينة في عهد الرسول ٣٠-٢٤٣

٥- احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، ١/٩٩؛ يمكن مراجعة الاصطخري، ١٥؛ و ابن الحوقل، ١٨

٦- البلاذري، فتوح البلدان، ٢٧٤

٧- الطبري، ٢/٤٧٧-٤٧٨

٨- همانجا

٩- البلاذري، فتوح ابلدان، ٢٧٠

١٠- هو ٢٧١

١١- الطبري، ٢/٤٨١

١٢- لمعرفة المزيد عن تخطيط مدينة الكوفة و مراحل بنائها مراجعة الجعفري، ٩٧-١٦٠

١٣- الجعفري، التشيع في مسير التاريخ، ١٣١

١٤- البلاذري، فتوح البلدان، ٢٤٧؛ الطبري، ٢/٣٨٤

١٥- معجم البلدان، ٤/٣٢٤؛ الطبري، ٢/٤٨١؛ البلاذري (نفس المصدر)

١٦- ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٩/٦

١٧- نفس المصدر

١٨- ابن سعد ٦/١٣، الطبري ٢/٥٣١؛ الجعفري، التشيع في مسير التاريخ، ١٣٥

١٩- ابن سعد ٦/١٥؛ البلاذري، الفتوح ٩٠٩؛ ابن اعثم الفتوح، ١/٢٢٢

٢٠- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ذيل الكوفة.

٢١- نفس المصدر السابق.

٢٢- الطبري، ٢/٤٥٢-٤٥٣

٢٣- البلاذري، الانساب، ٥/٤٦

٢٤- الطبري، ٢/٧٠٠

٢٥- ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ٦/٣٠، ٧/٢٨٢

- ٢٦- نهاية الارب، ٥٠/٢٠-٥١
- ٢٧- المفيد، الجمل ١٦٠
- ٢٨- الطبري، ٣/٥-٦
- ٢٩- يرجى مراجعة الدينوري، ١٤٢-١٤٣
- ٣٠- ابن الاعثم، ١/٤٥٢-٤٥٦
- ٣١- نفس المصدر السابق، ١/٤٤٨-٤٤٩
- ٣٢- الجمل، ١٢٨
- ٣٣- الدينوري، ١٤٤-١٤٥؛ تأريخ اليعقوبي، ٢/١٨١؛ الطبري، ٣/٢٨
- ٣٤- نهج البلاغة، الرسالة رقم (١)
- ٣٥- الدينوري، ١٤٤-١٤٥؛ اليعقوبي، التاريخ؛ ٢/١٨١؛ الطبري، ٣/٢٨
- ٣٦- الدينوري، ١٤٥
- ٣٧- ابن اعثم، ١/٤٤٦-٤٧٧؛ الطبري، ٣/١٠؛ الدينوري، ١٤٣
- ٣٨- الطبري، ٣/٢٢
- ٣٩- نفس المصدر، ٣/٢٣
- ٤٠- الدينوري، ١٥٣
- ٤١- نصر بن مزاحم، وقعة صفين، ١٣
- ٤٢- الدينوري، ١٥٢
- ٤٣- همو، ١٥٣
- ٤٤- ابن بلخي، فارس نامه، ١١٧
- ٤٥- البلاذري، ٣١٨
- ٤٦- اليعقوبي، التاريخ ٢/١٤٨
- ٤٧- اليعقوبي، التاريخ ٢/٢٠٠-٢٠٥؛ ابن ابي الحديد، ٤/٦٣-٧٦
- ٤٨- الجعفري، ١٤٦
- ٤٩- همو، ١٤٨
- ٥٠- يرجى مراجعة هيندز، ١٥٠-١٥١
- ٥١- جعفریان، حیات فکری و سیاسی امامان شیعه، ١/٢٧٣
- ٥٢- نصر بن مزاحم، ٢٩-٣٠
- ٥٣- لمعرفة امثلة حقيقية عن تصرفات الامام (ع) في المساواة مع العرب و غيرهم يمكن مراجعة البلاذري، الانساب ٢/١٤١؛ الثقفي، ابواسحاق، الغارات، ٢٣١؛ اليعقوبي، التاريخ ٢/٢٠٣؛ جعفریان، حياة فكري و... ٦٩-٧١
- ٥٤- سفينة البحار، ٨/٦٠٥
- ٥٥- نفس المصدر ٣٤١
- ٥٦- الواقدي، فتوح الشام ١/٢٦٥؛ قدامة بن جعفر، الخراج، ٣٦١
- ٥٧- البلاذري، الفتوح، ٢٤٠-٢٤١؛ الطبري، ٣/٣٦٧
- ٥٨- باكتجي، ازارقه، دائرة المعارف الاسلامية ٨/٥٠٧
- ٥٩- نفس المصدر
- ٦٠- ابن ابي الحديد، ٩/٥٨
- ٦١- الامين، اعيان الشيعة، ذيل الامام الحسين (ع)
- ٦٢- الطبري، ٢/٢٦٣
- ٦٣- الطبري، ٣/٤٣٦
- ٦٤- الخوارج و الشيعة، ٢١٣
- ### المصادر
- [١] ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد ابوالفضل ابراهيم، ١٣٧٨ هـ.ق، دار احياء الكتب العربية.
- [٢] ابن اعثم احمد الفتوح، بيروت ١٤٠٦، ه ق دار الكتب العلمية.
- [٣] ابن بلخي، عبدالله، فارسنامه باعتناء لسترنج و رانيكسون طهران ١٣٦٣ هـ.ش.
- [٤] ابن حوقل، محمد صورة الارض، باعتناء دخوية، ليدن ١٩٦٧ م.
- [٥] ابن سعد، محمد، الطبقات الكبرى، بيروت، ١٤٠٥ هـ.ق، دار بيروت للطباعة و النشر.
- [٦] ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، باعتناء روحية نحاس و زملائها دمشق ١٤٠٤ هـ.ق/١٩٨٤ م.

- [٧] الاصطخري، ابواسحاق ابراهيم باعثناء ايرج افشار طهران ١٣٦٨ هـ.ش شركة انتشارات علمي وفرهنگي.
- [٨] الامين، سيد محسن، اعيان الشيعة... [٩] البلاذري، الانساب الاشراف، تحقيق سهيل زكار و رياض زركلي، بيروت ١٤١٧ هـ.ق / ١٩٩٦ م.
- [١٠] —، فتوح البلدان، بيروت ١٩٨٨ م، مكتب الهلال.
- [١١] پاكتنجي، احمد، مقالة الازارقة — دائرة المعارف بزرگ اسلامي — طهران ١٣٧٥ هـ.ش.
- [١٢] الثقفي الكوفي، ابواسحاق، الغارات، تحقيق السيد عبدالزهراء الحسيني، بيروت ١٤٠٨ هـ.ق / ١٩٩٨ م دار الاضواء.
- [١٣] جعفرى، سيد حسين محمد، تشيع درمسير تأريخ، ترجمة سيد محمد تقى آيت اللهى، طهران ١٣٧٨ هـ.ش، دفتر نشر فرهنگ اسلامي.
- [١٤] جعفرين، رسول، حيات فكرى و سياسى امامان شيعة، قم ١٣٧٩ هـ.ش انتشارات انصاريان.
- [١٥] الخياري، احمد ياسين احمد، تاريخ معالم المدينة المنورة قديماً وحديثاً تصحيح وتخرىج عبيدالله محمد امين كردى، المدينة، نادى المدينة المنورة، الطبعة الاولى ١٤١٠ هـ.ق / ١٩٩٠ م.
- [١٦] الدينورى، ابوحنيفة، الاخبار الطوال، تحقيق عبدالمنعم عامر، القاهرة ١٩٦٠ م، دار احياء الكتب العربية.
- [١٧] السمهودى، على بن احمد، وفاء الوفاء باخبار دار المصطفى تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد، بيروت دار الكتب العلمية.
- [١٨] الطبرى، تاريخ، بيروت ١٤٠٨ هـ.ق / ١٩٨٨ م، دار الكتب العلمية.
- [١٩] عبدالله بن عبدالعزيز بن ادريس، مجتمع المدينة فى عهد الرسول، الرياض، ١٤١٢ هـ.ق / جامعة الملك سعود.
- [٢٠] قدامة بن جعفر، الخراج و صناعة الكتابة، تحقيق محمد حسين الزبيدى، بغداد ١٩٨١ م.
- [٢١] القمى، شيخ عباس، سفينة البحار، مشهد ١٤١٤ هـ.ق.
- [٢٢] المفيد، محمد بن محمد الجمل، قم مكتبة الداورى.
- [٢٣] المقدسى، محمد بن احمد، احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم، ترجمه على نقى متروى طهران ١٣٦١ هـ.ش / شركة المؤلفين و المترجمين — ايران.
- [٢٤] نصر بن مزاحم، وقعة صفين، تحقيق عبدالسلام محمد هارون قم ١٤٠٦ هـ.ق، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشى النجفى.
- [٢٥] النويرى، احمد، نهاية الارب، تحقيق محمد رفعت فتح الله و ابراهيم مصطفى، القاهرة ١٣٨٥ هـ.ق / ١٩٧٥ م، المكتبة العربية.
- [٢٦] نهج البلاغة، الشريف الرضى، ترجمة الدكتور شهيدى.
- [٢٧] الواقدى، محمد بن عمر، فتوح الشام، بيروت دارالجيل.
- [٢٨] فلهاوزن، يوليوس، الخوارج و الشيعة، ترجمة عبدالرحمن بدوى، الكويت ١٩٧٦ م.
- [٢٩] هيندز، مارتين، العلوم الجذرية (علوم الاساسيات) للتيارات السياسية فى الكوفة فى النصف الاول من القرن الاول للهجرة / القرن السابع للميلاد، ترجمة محمد على رنجبر، رساله فصول التاريخ الاسلامي، السنة الثالثة، رقم ٩ ربيع ١٣٨١ هـ.ش.
- [٣٠] ياقوت الحموى، معجم البلدان.
- [٣١] اليعقوبى، البلدان، ترجمة محمد ابراهيم آيتى، طهران ١٣٥٦ هـ.ش، دار الترجمة و نشر الكتب.
- [٣٢] —، تاريخ، بيروت، دار صادر.

علل و پیامدهای انتقال خلافت از مدینه به کوفه

علی بیات^۱

تاریخ دریافت: ۱۳۸۵/۱۰/۲

تاریخ پذیرش: ۱۳۸۵/۱۲/۱۵

انتقال مرکز خلافت از مدینه به کوفه، از رویدادهای مهم و سرنوشت ساز در تاریخ اسلام و تشیع است. با این انتقال که بنا به دلایل جغرافیایی، سوق الجیشی، سیاسی، اقتصادی، نظامی و اجتماعی صورت گرفت مرکز ثقل سیاسی جهان اسلام برای همیشه از حجاز به مرکزیت مدینه به خارج آن در کوفه و بعد دمشق، بغداد و... منتقل شد. علاوه بر این، کوفه پایگاه استقرار تشیع و گسترش آن در جهان اسلام، خصوصا در ایران گردید. در این مقاله علل و پیامدهای این انتقال مورد بررسی قرار می گیرد.

واژگان کلیدی: مدینه مرکز خلافت، کوفه مرکز خلافت، علل انتقال مرکز خلافت، پیامدهای انتقال، کوفه پایگاه تشیع.

۱. استادیار گروه تاریخ و تمدن ملل اسلامی دانشگاه تهران